المحاضرة الخامسة:

من موضوعات الأدب الصوفي الجزائري:

ثالثا/ المديح النبوي في الأدب الصوفي الجزائري:

1- مدخل حول المديح النبوي: نشأة ودوافع:

إذا كان المديح النبوي " نشأ مع صحابة رسولنا الكريم مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما، فقد عرف تطورا بمرور الزمن، إذ كانت له مكانته في كل العصور الإسلامية بعد عصر صدر الإسلام، من العهد الأموي إلى العباسي، لينتشر في كل البقاع الإسلامية، وبلاد المغرب العربي بما فيها بلاد المغرب الأوسط التي احتضنت بدورها هذا اللون من الإبداع الشعري ولاقى اهتماما كبيرا من قبل الشعراء والمتلقين معا، وهذا يفسر بأهمية الدين الإسلامي في حياة سكان هذه المنطقة ".

إنَّ " المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف؛ فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع: لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول؛ وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في الرسول يسمى مدحا، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء".

والمديح النبوي من أرقى الفنون ذلك أن مضمونه روحي عاطفي صادق، وقد كان ولا يزال "فنا أصيلا من فنون الشعر الديني، والمديح النبوي يتعلق بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فشخصيته اجتذبت قلوب المسلمين وغيرهم ليمدحوه لعظمتها وسموها " ،فكان بحق صورة عن الأدب الرفيع البعيد عن كل رياء، "ولهذا النوع الشعري خطورته في مجال الدعوة الإسلامية ، فهو شعر ديني ارتبط وتعلق بصاحب الرسالة المثل الإنساني الأعلى، والرسول صلى الله عليه وسلم شخصية إنسانية فريدة، استوجبت المدح و الإشادة بفضائلها للاقتداء بها و لتصفو النفس بتمليها، وبذلك كان هذا الفن الشعري صادقا نابعا من إيمان راسخ بالنبي" ،فالمضمون مميز "صادر عن شخصية الممدوح السامية و المشتملة على خصائص الإنسان الكامل."

ومن المهم أن نذكر هنا أن المدح شهد تطورا على مر العصور، والتحول الأكبر عرفه بمجيء الدين الجديد، فكان مدح المبعوث رحمة للعالمين، ومع هذا تواصل قول الشعراء في مدح الشخصيات المختلفة؛ وإن تغير النمط القديم فكثر المدح السياسي خاصة في العهد الأموي، كما

كثر في هذا العصر مدح الخلفاء بالتقوى والعدل والعفة، والحلم، وفي العهد العباسي ونظرا لحياة الترف التي سادت آنذاك حدث تحول على مستوى القصيدة وتم الانتقال من مقدمة البكاء على الأطلال إلى مقدمة لوصف الخمرة ومجالس اللهو والعبث وفي هذا الجو كان المادح يخرج الممدوح من هذا الإطار فيصفه بالحكمة والورع وعدم التهالك على ملذات الحياة، وعلى كل فمدح الخلفاء والحكام ارتبط في كثير من الأحيان بالتكسب سواء في العهد الأموي أو العباسي ، ومهما يكن من أمر ففي هذه الأثناء كان بالموازة مع هذا، ينمو المديح الصادق الذي لا رياء فيه إنه المديح المتعلق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إنّ الفتح الإسلامي لمنطقة المغرب العربي فتح نافذة تشع نورا على أهلها، وكما رحبوا بهذا الدين القويم أحبوا رسوله وعبروا عن حبهم له، وفي الحقيقة لا يمكن الفصل بين نشأة المديح النبوي في المشرق والمغرب العربيين ذلك أن الحياة الفكرية بكل مظاهرها في المشرق كان لها أثر كبير في شعراء المغرب العربي، مع بعض الخصوصيات، أهمها ميل أهل المغرب أكثر إلى الاتجاه السني؛ نظرا لبعدهم النسبي عن النظريات الفلسفية، وصلتهم بالمديح النبوي كانت عقب الفتح الإسلامي، لكن في بدايتها لم تكن غير إرهاصات، إلى أن ظهرت أول نبوية مطولة –تحدثنا عنها سابقا_ وهي الموسومة بالشقراطيسية وقد ظهرت في الجنوب التونسي وهذا في نهاية الثلث الأول من القرن الخامس الهجري وقد جاءت في ثلاثة وثلاثين ومائة بيت من البسيط تناولت موضوع السيرة النبوية والفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب، وقد لاقت اهتماما كبيرا من قبل الدارسين. وظل أهل المغرب الإسلامي يولون عناية كبيرة للمديح النبوي؛ إذ كان دعما لهم في ترسيخ الدين، ومساعدا لهم في التصدي للغزو، فعمدوا إلى الاحتفاء بميلاد المصطفى صلى الله عليه وسلم، و إنشاء قصائد تلقى في هذه الاحتفالات"

أما إحياء ذكرى ميلاد المصطفى صلى الله عليه وسلم فهي ظاهرة عريقة في الأدب الجزائري، بل من المشكِّلات الأساسية في هذا الأدب، ذلك أن العهد الزياني رسم صورة واضحة المعالم في هذا المجال حتى لنكاد نطلق عليه عصر المولديات، وإذا انطلقنا من المشرق وجدنا أنه " ابتداء من القرن السادس للهجرة أصبح للرسول الكريم دور آخر في قصيدة المديح؛ فقد أضحى هو مركز الثقل فيها إلى درجة أن قصائد كاملة كان هو موضوعها من البداية إلى النهاية "، من ذلك ما ميز العصر الأيوبي من عناية بمختلف العلوم الإسلامية خاصة بالحديث والسيرة النبوية، وتعظيما للسيرة النبوية...

وقد اختلفت الآراء بين مشجع لهذا التقليد، ورافض له؛ ومع ذلك فقد التفَّ حوله الكثيرون من الخاصة والعامة؛ ليستمر إلى الآن جامعا المسلمين على حب الرسول الكريم والبحث

في سيرته الزكية، وأبو العباس العزفي في المغرب " يعد من الأوائل هناك في سن الاحتفال بالمولد النبوي وهو موضوع التف حوله الناس وابتهجوا به، وقد أنجز هذا الرجل كتابه " الورد المنظم في مولد النبي المعظم "، والذي أتمه بعده ابنه أبو القاسم صاحب سبتة و أهداه إلى الخليفة الموحدي، فتوسعت بعد ذلك ظاهرة الاحتفال بالمولد وفتح الباب على مصراعيه للشعراء لدخول حلبة التنافس."

إنّ بداية عهد الاحتفال في المغرب العربي كانت في القرن السابع الهجري، وقد كانت وفاة العزفي سنة 677هـ [1]، لننتقل إلى الدولة الزيانية التي كان لها دور بارز في توسيع نطاق هذا التقليد، وإحاطته بهالة من العظمة؛ ففي الجزائر وعلى مدى القرون السابع، الثامن، والتاسع الهجرية صنعت الدولة الزيانية الحدث، وجعلت من المولديات مصدرا لتراث أدبي زاخ، وقد كان عهد أبي حمو موسى الثاني (723هـ- 791 هـ) يشع ثقافة وأدبا، وكانت المولديات هي السمة الأدبية المميزة لعصره؛ فقد " كان يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المراسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وشمع كالأسطوانات، وأعيان الحضرة على مراتبهم، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون، و بأيديهم مباخر ومرشات، ينال منها كل بحظه." ليس هذا فقط إنما هذه الليلة في عهد أبي حمو كانت بحق ليلة خارقة فاقت كل وصف تلقى خلالها قصائد في مدح المصطفى، ويقدم فيها ما لذّ وطاب من الطعام، إذ " والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا، والرياض نورا، قد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس، وتستحسنها الأعين، وتلذ بسماع أساميها الآذان، ويشره مبصرها للقرب منها، والتناول وإن كان ليس بغرثان، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه، وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح، على هذا الأسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته أعلى الله مقامه في عليين، وشكر له في ذلك صنعه الجميل آمين، وما من ليلة مولد تمر في أيامه ، إلا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما يبتدئ المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظما."

و"المولديات هي المدائح التي تلقى ليلة المولد النبوي، و تحتوي على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح الأمير الذي ينتظم حفل المولد بأمره أو بحضوره." ، ولها مظهر ديني، كما لها أثر

من جانب آخر في إثراء الوسط الأدبي، نتيجة لتباري الشعراء وتنافسهم في نظم القصائد الحاملة للمشاعر الدينية، والمعبرة عن الفضائل المحمدية.

إنّ المديح النبوي والمولديات ارتبطت بشخص الرسول الكريم، بدافع ديني، واعتبارا لكون الشعر الصوفي شعرا دينيا؛ فكيف ظهرت شخصية الرسول الكريم لدى الصوفية ؟ والأكيد أنه لن يكون تناولهم لهذه الشخصية المتميزة إلا بشكل صوفي عميق.

2- علاقة المديح النبوي بالتصوف:

في حديثنا عن مفهوم المديح النبوي أوردنا ما قاله زكي مبارك عن أن المديح النبوي أذاعه التصوف؛ وإن كان ليس كل المديح النبوي تصوفا – وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم الصوفي وغير الصوفي– نأخذ هذا الرأي بعين الاعتبار، لأن فن المديح النبوي "مرتبط بمضمون سام صادر عن شخصية الممدوح السامية والمشتملة على خصائص الإنسان الكامل."[2]، من هذا المنطق يكون المديح النبوي مجالا ينقل الشاعر إلى عوالم مثالية، فحدث نوع من التداخل بين الشعر الصوفي وشعر المدح النبوي على اعتبار أن الصوفية في تعبيرهم عن مواجيدهم وأحوالهم، وفي جو ديني ذكروا النبي الكريم فوصفوه بالقطب الأكبر، والغوث، ومنبع الأسرار وغير ذلك من العبارات التي انسجمت مع مصطلحات صوفية أخرى لتجعل نص المديح النبوي يعبق بالصوفية وبكل ما فيها من روحية وجدانية، ومن هنا تغلغل الرمز في المديح النبوي وعرِف لدى الصوفية ما يسمى بالحقيقة المحمدية وهي " فكرة صوفية تربط بين الحقيقة المحمدية و بين خلق الوجود ... فالرسول في وجوده أسبق من وجود العالم ومن خلقة آدم قبل أن يتجسد ، وأن وجود العالم وظهور آدم إنما هما من علامات الرسول ومن آياته، وهي نظرة صوفية بحتة تجعل الرسول مدار الكون ومحور الذي بدونه لا يستقيم العالم، وأنه سابق للوجود في نشأته و لولاه لم يخلق هذا العالم."

وقد أسهم التصوف في انتشار المدائح النبوية، إذ كلما تغنى الصوفية بالذات الإلهية، مدحوا الرسول الكريم، بل قد أكثروا من مدحه صلى الله عليه وسلم في أشعارهم."

ومن هنا تتضح تلك الصلة الوثيقة بين المديح النبوي والتصوف، بحيث أخذت الكثير من القصائد في المديح النبوي الصبغة الصوفية، وهو أمر طبيعي، إذ نجد الكثير ممن عرِفُوا بمدح الرسول متصوفة والعكس صحيح حيث اشتملت أشعار الصوفية على الكثير من الشعر في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومن نماذج التعانق بين المديح النبوي والتصوف، قول ابن الخلوف القسنطيني أحد أبرز شعراء المديح النبوي في الجزائر في القرن التاسع الهجري وديوانه " جني الجنتين في مدح خير الفرقتين ":

حبِيـــب الحـــقّ خَيـــر الخَلْـــق طَـــه إمـــــام الرســـــل درى الـــــدراري

هـــلاَلُ الكَـــونِ مصـــباح الـــدياجِي صـباح الأُفْـق، شَـمس ضـحى النَّهـارِ

رِيـــاض الأمـــن، مفْتَـــاح المعـــالِي غَمـــام الجـــود، كَنْـــز الادخَـــارِ

وبشيء من التأمل نستشعر نفحات صوفية، فالرسول الكريم هو "درى الدراري"،" صباح الأفق"، "مفتاح المعالي" ،و"غمام الجود"، وكلها مصطلحات توحي بسطوع الجمال المحمدي على الكون، فهو مدار الكون، والشاعر و إن " لم يكن صوفيا، فإنه قد اتكأ على المعجم الصوفي لتوظيف مصطلحاتهم للتعبير عن بعض أفكاره."

ويمكن أن نشير أخيرا إلى أنه وكما كان للزهد صلة وثيقة بالتصوف، فللمدائح النبوية أيضا صلة عميقة بالتصوف، ذلك أن القرون السابع، الثامن، والتاسع الهجرية كانت قرون تصوف، وكما كان الشعراء من غير الصوفيين يتخذون من المعجم الصوفي متكأً للتعبير عن حبهم للرسول الكريم، كان الشعراء من الصوفيين يعيشون حياة زهد متخذين من الرسول الكريم قدوة فعبروا عن تأثرهم به وحبهم له فأنتجوا مادة أدبية زاخرة تعبق بحب الله تعالى وحب رسوله الكريم، وهكذا الزهد، التصوف، والمديح النبوي شكلوا معا فسيفساء أدبية عبرت بصدق عن الصبغة الدينية التي ميزت الحياة السياسية، الاجتماعية و الأدبية في الجزائر على مدى القرون الثلاثة المذكورة سالفا، ومهما يكن من أمر، فالمدائح النبوية ووسط مناخ صوفي أخاذ ، تعددت مضامينها.

3- مضامين المدائح النبوية في الجزائر

في القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية: تجليات ونماذج

عرفت المدائح النبوية انتشارا كبيرا في الجزائر، وقد يكون من أبرز أسباب هذا الانتشار المولديات التي صنعت الحدث بامتياز، حيث أولاها الحكام اهتماما كبيرا، والتف حولها العامة ، فكانت مجالا للمنافسة بين الشعراء، ومن شأن هذه المنافسة أن تثري الساحة الأدبية الجزائرية بنتاج غزير و جميل في مدحه صلى الله عليه وسلم، و قد تنوعت صور مدح المصطفى عليه الصلاة و السلام من شاعر إلى آخر ؛ ذلك أن لصور مدح الرسول الكريم أنواع عديدة، و بهذه الأنواع بث الشاعر الجزائري –ومنذ القدم– مشاعر حبه الفياض للرسول الكريم ، وقد خالط حب النبي حب

البقاع المقدسة و الشوق لزيارتها مع شوق كبير لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام هذا النور الساطع على كل الكون ، أو كما قال الصوفية.

إن في هذا إشارة واضحة إلى موضوعات شعر المديح النبوي وهي عديدة تدور في فلك حب صاحب الرسالة المحمدية، وتتوزع عبر أنوع المدائح النبوية التي هي "المدائح العامة الصرفة، الشعر في مدح آل البيت شعر التشوق، المولديات والبديعيات "، فأما المدائح العامة الصرفة فتضم المدائح النبوية التي تتطرق لمآثر الرسول صلى الله عليه وسلم وتستقي من سيرته العطرة ماعبر عن أحواله، وفضائله، و أخلاقه و معجزاته، وكل ما يتعلق به من حسن خُلُقي و خَلْقي، في حين قصيدة التشوق فهي تشير إلى تشوق الشاعر و تلهفه لزيارة قبر النبي، والبقاع المقدسة، والمولديات نوع آخر من المديح النبوي مرتبطة بإحياء ليلة المولد النبوي الشريف، وكذا البديعيات التي هي قصائد طويلة في مدحه صلى الله عليه وسلم وقلما تمدح غيره، يتضمن كل بيت فيها لون من ألوان البديع.

وهكذا بين مدح الرسول الكريم وذكر صفاته الخَلْقية و الخُلُقية، والتشوق للبقاع المقدسة وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم، ووصف فضائله، و معجزاته وغزواته، والتبرك بنعاله، ثم طلب شفاعته بعد الندم على ما فات و التوسل إلى الرسول الكريم والتضرع إلى الله تعالى؛ يظل المديح النبوي لصيقا بذات الشاعر المسلم في المشرق والمغرب، و يظل سائرا في هذه الأغراض التي تمس مختلف الجوانب المتعلقة بالرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، و هذه الأغراض تأتي في مقدمة ثم الموضوع الأساسي فالخاتمة؛ ذلك أن الشاعر العربي دأب على التمهيد لغرضه بمقدمة، وشعراء المديح النبوي استحدثوا طريقة أخرى غير استهلال القصائد بالنسيب والطلل وعمدوا إلى الاستهلال بوصف تعلقهم بالنبي الكريم و حنينهم إلى موطنه و كذا الدعوة إلى مدحه صلى الله عليه وسلم مع التوسل إليه و التضرع إلى الله تعالى ووصف الرغبة في زيارة البقاع المقدسة ، ثم يأتي الموضوع الأساسي المتمحور في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد يتبع بمدح السلطان في المولدية و بمدح نعاله صلى الله عليه وسلم في النعاليات ، أما خاتمة المدحية فكثيرا ما تكون في الاستغفار و التضرع إلى الله تعالى والتوسل إلى الرسول الكريم و الصلاة والتسليم عليه و التعلق به عليه الصلاة والسلام، وكذا الاقرار بالذنب و الاعتراف بالتقصير و أخيرا الافتخار بالمدحية ، وهذه المحطات تحضر أكثر في المولديات لكونها تنظم بمناسبة ذكرى المولد النبوي و تلقى على جمهور خاص ، لذا كان الحرص على تقديمها مكتملة.

ومن شعراء القرن السابع أيضا، الشاب الظريف وهو شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني، وقد ترجمنا له عند حديثنا عن أعلام الشعر الديني، وله في مدح الرسول صلى الله عليه

وسلم هذه القصيدة التي استهلها بذكر موطنه عليه الصلاة والسلام، ليسترسل في إظهار حبه لهذه الأرض و حبه و شوقه للهادي البشير وصحبه، ثم يشرع في مدحه ليطلب شفاعته مقرا بذنوبه ، هذا بعد أن يبين مكانته صلى الله عليه وسلم عند رب العزة ، يقول:

أرض الأَحبة من سفْحٍ و من كَثَبِ ... سقَاك منْهمر الأنْواء من كَثَبِ

ولاَ عدت أهلك النّائين من نفسِ ... الصبا تَحية عاني القَلْبِ مكْتَئب

قَوم هم العرب المحمي جارهمفلا ... رعى الله إلاَّ أوجه العربِ

أَعز علَي من سمعي ومن بصرِي ... ومن فُؤَادي و من أهلي ومن نَسبِي

لهم علي حقُوق مذ عرفْتُهم ... كَأَنَّني بين أمٍ منْهم و أَبِ

إن كان حسن ما في الشِّعرِ أَكْذَبه ... فَحسن شعرِي فيهم غَير ذي كَذبِ

حياك يا تُربةَ الهادي الشّفيعِ حيا ... بمنْطق الرعد باد من فَمِ السحبِ

يا ساكني طَيبة الفَيحاء هلْ زمن ... يدني المحب لِنَيل السؤالِ و الأرب

ضممت أعظَم من يدعى بأعظم من ... يسعى إليه أَخو صدق فَلَم يخبِ

و حزتَ أفْصح من يهديو أوضح من ... يبدي وأَرجح من يعزى إلى نَسبِ

تحدوا النياق كرام نحو تُربته ... فتَملأُ الأَرض من نجب ومن نحب

يسعون نحو هضاب طاب مورِدها ... كأنما العذْب مشْتَقٌ من العذب

أرض من الله عين الشمس تحرسها ... فإن تَغب حرستها أعين الشُهب

يا خير ساع بِباع لا يرد ويا ... أَجلَّ داع مطَاعِ طاهرِ الحسبِ

ما كان يرضى لَك الرحمن منْزِلَة ... يا أشْرفَ الخَلق إلاَّ أشْرفَ الرتَبِ

لي من ذُنُوبِي ذَنْب وافر فَعسى ... شَفَاعةٌ منْك تُنْجِني من اللَّهبِ

جعلْتُ حبك لي ذخْرا و معتمدا ... فَكَان لِي ناظرا من ناظرِ النوبِ

إِلَيك وجهت آمالِي فَلَا حجبت ... عن بابِ جودك إن الموتَ في الحجبِ

وقد دعوتك أرجو منك مكرمة ... حاشاك حاشاك أن تُدعى فَكم تُجِب

هي قصيدة - من البسيط - تنساب رقيقة عذبة وجمعت بين شوق للقاء الأحبة وأرض الأحبة - الحجاز - ، ويأتي في صلب الموضوع ليقولها صراحة - تربة الهادي الشفيع -، ليسترسل في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو أشرف الخلق، وموطنه أطيب أرض، ليقر أخيرا بذنوبه طالبا شفاعته صلى الله عليه وسلم.

هذه النماذج من القرن السابع الهجري في الجزائر، قد تنوعت ولم تخرج عما عرِف منذ بردة البوصيري، إلا أنها يغلب عليها المضمون المتعلق بالاعتراف بالذنب وطلب شفاعته عليه الصلاة وسلام، وهي من الجانب الموضوعاتي ناضجة، قد تعكس الجو الذي طبع النبويات في ذلك القرن، وقد تميزت بالجمع بين مدح النبي الكريم وطلب الشفاعة و العفو، وفي السياق ذاته تتواصل المسيرة في القرنين المواليين الثامن والتاسع للهجرة.

ومن قصيدة للثغري التلمساني نقتطف أبياتا تسمح لنا بتتبع المضامين ،وقد قيلت ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة 771هـ ، مما جاء فيها من بحر البسيط:

أَقْصر فإن نَذير الشَّيبِ وافاني وأنْكَرتني الغَواني بعد عرفَانِ

وقد تَماديتُ في غَي بلاَ رشَد والنَّفْس تَأْمرني و الشَّيب ينْهاني

يستهل " الثغري" قصيدته، بالندم على ما فات، ثم يواصل في تقديم دعوة إلى التوبة وقهر النفس، فيقول

ولِم فَلاَ تَغُرنّك الدنْيا بِزخُرفها فَيا نَدامة من يغْتَر بالفاني

فَلَيس فيها وِصالٌ دون هجرانِ ولَيس فيها كَمالٌ دون نُقْصانِ

إلى أن يقول:

عنْدي لِطيبة أَشْواقٌ مضاعفة أَذَبن قَلْبي وقد أَنْحلْن جثْماني

مهما تَذَكَّرتُ بعدي عن معاهدها سحت بِوالِ دمعي سحب أَجفَاني

ويقول أخيرا:

قَبلْ ثَرى روضة حلَّ الحبِيب بِهاَ بلْ جنَّة عرفَها روحي وريحاني

يتراءى لنا كيف يصل الشاعر الجزائري بين الندم والتوبة، والشوق إلى زيارة البقاع المقدسة، ثم يربط بين كل هذا وحبه للنبي الكريم، فالشوق لطيبة وحب موطن المصطفى ليس سوى شوقا إليه عليه الصلاة والسلام، وهكذا يجد الشاعر ملاذه بالتعلق برسول الله بعيدا عن زخرف الدنيا الفانية، واختيار الهروب إليه صلى الله عليه وسلم رغبة من الشاعر في التحرر من أسر المادة ودخول العالم الطيفي الجميل المليء بالروحانية والعمق، حيث نلمس مسحة صوفية في هذه الأبيات، وقد ظهر لنا النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة المثل الأعلى أو النموذج الأكمل للإنسان الذي يرقى عن كل نقص. ونظل مع القرن الثامن الهجري ، نقف مع هذين البيتين:

يـــا مصـــطَفَى مـــن قَبـــل نَشْـــأَة آدم والكَـــون لَـــم تُفْـــتَح لـــه أَغْـــلاقُ

أيـــروم مخْلُـــوقٌ ثَنَـــاءك بعـــدما أَثْنَـــى علَـــى أَخْلاَقـــك الخَـــلاَّقُ

هذان البيتان للعلاّمة لسان الدين بن الخطيب، عاش في القرن الثامن الهجري من أبناء الأندلس، عاش فترة في تلمسان، وكما يرى قد لهذين البيتين مسحة صوفية خاصة في البيت الأول، فمن قبل نشأة آدم، الكون لم تُفتح أغلاقه إلا بمجيء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي، الرسول الكريم هو ذلك النور الذي ينعكس على كل الكون، إنه نور سيد الخلق جميعا، وقد أثنى عليه الله تعالى.

ولنأخذ صورة عن مضامين المديح النبوي عند ابن الخلوف القسنطيني نستفيد من الدراسة التي قام بها الدكتور العربي دحو في كتابة " ابن الخلوف و ديوانه جني الجنتين في مدح خير الفرقتين " المعروف بديوان الإسلام.

وهي القصيدة الموسومة– حسب ما جاء في الديوان المحقق من قبل الدكتور العربي دحو– "بـ عليك توكلي"، وهي قصيدة (من الوافر)، ومما استهل به الشاعر:

عليـــك تـــوكُّلي ولـــك افتقَـــارِي ومنـــك تطليمـــي وبـــك انْتصـــارِي

وفيـــك محبتـــي وإليـــك أمـــري وهـــل إلاَّك وبـــك اخْتيـــارِي

أيـــا ملـــك الملـــوك ولا مليـــك ســـوى عبـــد ببابـــك خَـــذْ بثـــاري

كما هو واضح مقدمة هذه القصيدة هي الدعاء والتضرع ، ويواصل في مخاطبة رب العباد فليس في الأكوان سوى رب السماء، وبعدما يفوق عشرين بيتا يدخل في صلب الموضوع ليشرع في مدح النبي الكريم ، ويبتدئ ذلك بأمل في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم، مما يقول:

مـــن بـــزورة الهـــادي المرجـــى لنَيـــلِ الفَـــوزِ فـــي دارِ القَـــرارِ

عصـــامِ قُصـــيٍ فَخْـــر بنـــي لـــوي عمـــاد معـــد لهـــف بنـــي نـــزار

حبِيـــب الحـــقّ خيـــر الخلـــق طـــه إمـــام الرســـل درى الـــدرارِي

هـــلالُ الكـــونِ مصـــباح ،الـــدياجِي صـــباح الأفـــق ، شـــمس ضـــحى النهـــارِ

ريـــاض الأمـــنِ ، مفتـــاح المعـــالي، غمام الجود ، كنز الادخار

وهنا نجده يذكر خصاله وفضائله، كما يذكر فيما يلي جانبا من معجزاته، وإنجازاته قائلا:

أحيـــا ملَّـــة الإســـلام لمـــا أقـــام رســـومها بعـــد الـــدمارِ

وأوضـــح شَمســـها مـــن بعـــد كســـف وأطلـــع بـــدرها بعـــد الســـرار

وذلّـــل ملـــك كســـرى بعـــد عـــز وأوهـــــى دار فَـــــارس بـــــالبوارِ
وأخْمـــد نَـــارهم بعـــد اشـــتعالِ وغـــور مـــاءهم بعـــد انْفجـــارِ
وحـــن الجـــذْع مـــن شَـــوق إليـــه كمـــا حـــن الغَريـــب إلـــى الـــديار
ووقَتْـــه الغمامـــة حـــر قـــيظ وجاءتْـــــه بِأَميـــــاه غـــــزارِ
وشُـــقَ لأجلـــه بـــدر الـــدياجي كمـــا ردت لـــه شـــمس النَّهـــارِ
ونادتـــه الغَزالـــةُ أن أجِرنـــي لأقضـــي حـــقَّ أولاد صـــغَار

وهكذا يوصل في ذكر أوصافه وأخلاقه وفضله، ودوره الفعال في بث صور الخير وسط أمة الإسلام، والأمم جميعا، فهو الهادي الداعي إلى الرشد والسعادة في الدنيا والآخرة، ويسترسل الشاعر في مدحه صلى الله عليه وسلم، وهنا تظهر ببعض الأبيات نفحات خفيفة للتصوف، حيث ينجلي الحب المحمدي والحقيقة المحمدية في بعض الألفاظ، وإن لم تكن كثيرة لكنها موجودة، من ذلك قوله:

فهـــم غـــوثٌ لمنْتجـــعٍ وزهـــر لمنْتَشَـــق وهـــم زهـــر لِســـارِي
وهـــم غيـــثُ المـــولي و المـــوالِي وهـــم غـــيظُ المراجِـــي و المجـــارِي
إمـــام أئمـــة الثقلـــين طُـــرا وأكـــرم مســـتَماحٍ مســـتَمارِي
تُجـــاوِره المعـــالِي حيـــث يغْـــدو فتَظْفـــر مـــن عـــلاه بخَيـــرِ جـــارِي

ويقول:

أيـــا جمـــع الأنَـــامِ بِـــلا شَـــبِيه، ويـــا فَـــرد الكـــرامِ بِـــلا مجـــارِي
ويـــا شَـــمس الســـعود بـــلا غُـــروب ٍ ويـــا بـــدر الســـرورِ بِـــلاَ ســـرارِ

ويواصل فيما يفوق مائة بيت يمدح الرسول الكريم ويصفه خَلْقًا وخُلُقًا، إلى أن يصل إلى الأبيات الأربعين الأخيرة ويشرع في وصف شوقه لموطن النبي الكريم، والوقوف على قبره، ومما قال:

وســـرتُ علـــى ذُرى الـــريحِ اعتجـــالا وصـــرتُ علـــى الطّـــائِرِ فـــي مطـــارِ
لأشـــهد روضـــةً حـــوت المعـــالي فَحـــقَّ لهـــا بـــأن تَســـبِي الـــدراري
وألـــثم تربـــة ضـــمتْ عظامـــا تَعـــاظَم قَـــدرها عـــن ذي افْتخَـــارِ

وهكذا يقترب شيئا فشيئا من اختتام قصيدته، فيتجه إلى طلب الشفاعة من الرسول الكريم، ثم يكون مسك الختام الصلاة و السلام على النبي ، فيقول:

فجـــد لِـــي بالشـــفَاعة مرجـــى لِـــدفْعِ ملمـــة، أو أخْـــذ ثـــاري

ويقول أخيرا:

وصـــلِّ علـــى نبيـــك مـــا تثنَّـــت غُصـــون هاجهـــا صـــوت الهـــزارِ

وبلـــــغ آلَـــــه أزكـــــى صـــــلاة تُواصـــــلُ فـــــي رواحٍ وابتكـــــارِ

وجـــازِ الصـــحب خَيـــرا مـــا اســـتَطالَتْ علـــى زنـــجِ الـــدجى نَـــبطَ النَّهـــارِ

لقد تنوعت صور مدح المصطفى عليه الصلاة و السلام من شاعر جزائري إلى آخر ؛ ذلك أن لصور مدح الرسول الكريم أنواع عديدة، وبهذه الأنواع بث الشاعر الجزائري – ومنذ القدم– مشاعر حبه الفياض للرسول الكريم، وقد خالط حب النبي حب البقاع المقدسة و الشوق لزيارتها مع شوق كبير لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام هذا النور الساطع على كل الكون، أو كما قال الصوفية. فكان يوصل في ذكر أوصافه وأخلاقه وفضله، ودوره الفعال في بث صور الخير وسط أمة الإسلام، والأمم جميعا، فهو الهادي الداعي إلى الرشد والسعادة في الدنيا والآخرة، ويسترسل الشاعر في مدحه صلى الله عليه وسلم، وهنا تظهر ببعض الأبيات نفحات خفيفة للتصوف، حيث ينجلي الحب المحمدي والحقيقة المحمدية في بعض الألفاظ، وإن لم تكن كثيرة لكنها موجودة.

المصادر والمراجع (الإحالات):